بيري ـ نرى ان موسى علي يربّي ابنه راماد في الخفية، ليحافظ على الوحشية البدوية القديمة (الصورة النمطية الواردة كثيراً في الادب العبري)؛ امّا فردج، فيحلم بالتجوال، والآفاق الواسعة، والانضمام الى «بدو اليهود».

ان الدعوة الى تحدي الحواجز في الروايتين (من قبل الطرف البدوي، خاصة) تنتهي بفشل، كما رأينا من احداث الروايتين، لكن التحدي قائم. الشخصيات في القسمين ـ الروايتين تفتش عن شيء جوهري للقبض عليه، لكنها تعيش في الاسطورة، لدرجة انها، شيئاً فشيئاً، تتحول الى اسطورة. لذا، يرى بيري ان «اللقاء مع الآخر محكوم ليكون غربة واساطير غير مستقرة، ولذا، كلهم يحلّقون؛ منفصلون؛ سخفاء على المستوى العملي... رفائيل، الهارب من ماضيه، يطلب ان يتملّى من الصحراء؛ فردج، الهارب من ماضيه والى مصير ابنه، يطلب ان يتملّى من الصحراء؛ وعوديد المليء بالمستقبل والخفة البسيطة ـ هم فقط ثلاث صور لشيء واحد: تحليق» (الغلاف).

ان قدوم اليهود هو بداية التغيّر الحاصل في عالم الصحراء: انه تغيّر غير بعيد المدى. فالهواء سيغطي الدروب بالرمل وتظل القوة والسلطة، في النهاية، للمكان نفسه؛ للصحراء.

كل شيء في الصحراء يلتقي بنقيضه: الاتساع (الحرية) يلتقي بمصيدة النمور (القيود)؛ راماد يلتقي بيونتان؛ ولكل ناحية او جهة «نمر» خاص بها. فلليهود «نمر» مؤشر ومربوط بجهاز بث (الحضارة)؛ ولراماد نمره الحر (البدائية والانطلاق والاتساع).

ان البدوي (ابن المكان) يثير غضب واستياء اليهودي القادم من بعيد. فالبدوي يملك اسرار المكان؛ لكن القادم بتحضره يحاول الحفاظ على ما في المكان بواسطة البدوي، الذي سيتحوّل الى ضحية في حالة حفاظه على جوهر وحقيقة بدويته: فموسى علي، الذي تحوّل الى «بدوي يهود»، والذي يعد، منذ سنين، «صرخته الكبيرة» للعودة الى اصله البدائي والاكثر صفاء، يفقد ذلك مرة واحدة حين يغمر الطوفان ابنه الاسطوري راماد.

ان الاشارات والدلائل كثيرة التي ترد في الكتاب لكي تشير الى ان الهوية اليهودية كان لها تأثير كبير في موسى علي وفي فردج. فهناك تلميح محض صهيوني ـ جاء من طريق الكاتب على لسان موسى علي ـ يشير الى عودة «نمور» صهيون، الذين كانوا غائبين، الى صحراء يهودا: «النمر عاد اخيراً» (ص ٨٨).

راماد لا يطيق القيود المتمثلة في يونتان (رجال حرس الطبيعة)، فيصطدم معه، وتكون نهايته الموت. امّا فردج، فيقود حفيده عوّاد الى عالم اليهود، بدون اية مشاكل.

في الروايتين نحس بأن كلا الطرفين، اليهودي والعربي البدوي، يتصارعان كل من اجل نمره الخاص. ان اللقاء الذي يتمّ في الروايتين، في اطار كسر الاعراف والتقاليد والمحرّمات والحواجز، بواسطة الشخصيات، كان لتغذية الروايتين بالدرامية الزائدة على حساب بدوية البدو وعروبتهم. ومع ان شيزاف استطاع ان يقدّم عالماً صحراوياً جديداً في الادب العبري الحديث، الّا ان الشخصيات البدوية العربية كانت ناقصة ومنمطّة ومقولبة. ولقد كان افتعال الاحداث في احيان، والعودة الى اسطرة العربي، والقذف عليه، وتنميطه، سمة بارزة من سمات الكتاب. صحيح، ان الكتاب مسّ جانباً هاماً من حياة البلاد هنا (قضية تشويه وتخريب عالم البدو)، لكن التوجه كان توجهاً صهيونياً بحتاً، الى درجة ان يشار، على لسان موسى علي البدوي، الى عودة «النمر» (الصهيوني) الى صحرائه.

لقد كان اللقاء بين اليهودي ـ القادم الجديد (صاحب الحضارة) والبدوي راماد لقاءً غير متعادل؛ لقاءً بين: بدوي يحافظ على تراثه وامجاده وبداوته، وآخر (يهودي) بقوته وحضارته. وبمساعدة العناصر الطبيعية (الطوفان) يهزم البدوي. فتراث وبداوة راماد لا تساعدانه على البقاء، وانما يترك المنطقة ليحافظ على عالمه واصالته؛ لكن العقل البدائي الذي يحمله راماد لا يفكّك، ولا يحلّل، ولا يدرس امكانيات الآخر، ليواجه حضارة يونتان، وانما يعمّم ويرى الامور بكلّيتها، فيكون ضحية بائسة للمواجهة القائمة بين الاثنين. وخلافاً لصلابة واصالة مواقف راماد، فان فردج يعد عوّاداً ليكون طيّاراً في سلاح الجو الاسرائيلي. وتتأسس الفكرة التالية